حول مفهوم مصطلح الإشارة ودلالته عند الصوفية

د. حسـيـن علـي عكــاش❖

تدل كلمة (الإشارة) في المعاجم العربية على الإشارة الحسية التي تكون بالكف والعين والحاجــب والرأس، يقال: أشار الرجل يشير إشارة، إذا أومأ بيديه، ويقال شورت إليه بيدي وأشــرت إليــه أي لوحت إليه، والمشيرة: هي الإصبع التي يقال لها السبابة، ويقال للسبابتين: المشيرتان(1).

وهذه الكلمة وما اشتق منها لم ترد في القرآن الكريم إلاّ مرة واحدة، وذلك في سياق حكاية قــصة السيدة مريم عندما أتت قومها حاملة وليدها عيسى -عليه السلام- وهو قوله تعالى: ﴿فكلي واشـــربي وقرّي عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً، فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمــك بغيــاً، فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً، قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً...﴾(2).

فالإشارة المذكورة في الآية حسية قد تكون أداتها الكف أو الرأس أو غير ذلك.

يعد مصطلح الإشارة من المصطلحات التي استخدمها الصوفية(3) بوصفه ملاذاً لهم في التعبيــر عن مشاهدات قلوبهم ومكاشفاتها، لأنه على حد قول الكلاباذي: "ومشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق بل تعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفهــا إلاّ مــن نــازل تلــك الأحوال وحل تلك المقامات"(4).

ومعنى ذلك أن هذه المكاشفات والخواطر التي يحصل عليها الصوفي مــن طريــق المجاهــدات والترقي في المقامات لا تحتمل الشرح والتعبير، وليس هناك من سبيل لإظهار هذه المكاشفات وتلــك الخواطر إلاّ سبيل الإشارة، وبعبارة أخرى أنه لا يمكن شرحها بعبارات صريحة جلية، وإنما بألفــاظ مقتضبة تشير إلى معان خفية لا يدركها إلا من نازل تلك الأحوال وعاش تلك المقامات، وهذا ما عناه

❖ جامعة المرقب – كلية الآداب – زليتن – ليبيا.

السهروردي، عندما فتح في كتابه (عوارف المعارف) باباً أطلق عليه: (ذكر إشارات المشايخ في المقامات)، حيث فسر تحت هذا الباب إشارات القوم التي هي عبارات شديدة الاختصار تحوي ألفاظاً قليلة ومعاني واسعة. وفهم هذه الإشارات لا ينكشف إلاّ لمن خاض غمار تجارب القوم في المقامات والأحوال، إذ ألفاظ تلك الإشارات لا تعرف عن طريق منطق العقل والنظر بقدر ما تفهم عن طريق الذوق والكشف، ولا يتأتى ذلك إلاّ لسالك يداوم على مخالفة الأهواء وتجنب الآثام، والبعد عن الشهوات، وإخلاص العبادات، والسير في طريق الله بالرياضات والمجاهدات في الطاعات، حتى تتكشف له غوامضها وتتجلى له معانيها[5].

إلى جانب ذلك فإن لاستخدام الإشارة في عبارات الصوفية بعداً آخر يتجسد في الغيرة على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها، والمنع للدخيل بينهم حتى لا يعرف ما هم فيه شفقة عليه أن يسمع شيئاً لم يصل إليه فينكره على أهل الله[6] .

أما استخدام الصوفية لمصطلح الإشارة في تفسيرهم للقرآن الكريم فهو يعني دلالة اللفظ الوارد في النص القرآني على معنى خفي، إذ يرى الصوفية أن النصوص القرآنية على ظواهرها ولكنها في الوقت ذاته تحوي إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب سلوك[7].

هذه الإشارات الخفية التي تظهر للصوفي أثناء تلاوته للقرآن الكريم ثم يعبر عنها بلغة مقروءة هو ما يسمى بالتفسير الإشاري، وذلك أنهم حين يتكلمون على آية من آيات القرآن الكريم يقرون تفسيرها اللفظي ويأخذون به كما ذكره المفسرون، ويستنبطون منها بعد ذلك معنى إشارياً يتصل بما يفيضون فيه من مقامات وأحوال، ومعارف وأسرار[8].

وهذا في الحقيقة تحقيق منهم لفكرة يؤمنون بها، وهو أن كلام الله غير محدود، حيث تتعذر الإحاطة به، فما لا ينتهي لا يعبر عنه إلاّ بما لا ينتهي، وفي هذا الإطار يقول سهل التستري: "لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى في آية من كتاب الله من الفهم، لأنه كلام الله وكلامه صفته، وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لا نهاية لفهم كلامه، وإنما يفهمون على مقدار ما يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم لكلامه"[9].

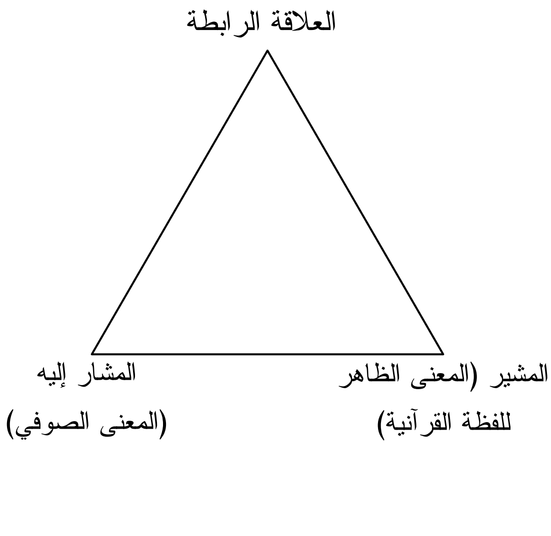
كما أن ذلك مبني على اعتقادهم بأن للقرآن ظاهراً وباطناً، وهذه الرؤية لها ما يؤيدها من الأخبار والآثار التي تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم[10]، ولذا قيل به قديماً وحديثاً، لأن المرء إذا سمع كلاماً عربياً تبادر إلى ذهنه ما يدل عليه الكلام بحسب وضعه العربي، فإذا تأمله

وتدبره وأنعم النظر فيه، فقد يفهم منه مقاصد مطوية وأغراضاً خفية، فالمدلول الأول هو ظاهر الكلام، ويكاد يدركه كل عارف باللغة، والمفهوم الثاني هو باطنه وهـو لا يـدرك إلاَّ بـشيء مـن التـدبر والتأمل(11).

وقد كانت الإشارة عند الصوفية هي السبيل للوصول إلى ذلـك البـاطن المـستتر وراء أسـوار الظاهر، وفي هذا دلالة على أن إبراز الباطن وإظهاره يقتضي أن يمر المفسر بمرحلة الظاهر، حتـى يكون وصوله إلى الباطن مأمون العاقبة(12).

وهذا ما أشار إليه الإمام الغزالي بقوله: "ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظـاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر كمن يدعي البلوغ إلى صـدر البيـت قبـل مجاوزة الباب، أو يدعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك"(13).

وبهذا يمكن القول إن الإشارة التي استخدمها الصوفية في تفسيرهم للقـرآن، والتـي بهـا وسـم تفسيرهم، تقتضي وجود مشير وهو الدلالة الظاهرة للعبارة القرآنية، والتي يتوقف عندها المفـسرون من أهل الظاهر شارحين إياها ومبينين، ثم يأتي المشار إليه، وهو الفهم الباطن الذي يدركـه المفـسر الصوفي من خلال إشارة المشير، وأخيراً تأتي العلاقة الرابطة بينهما، هذه العلاقة في حقيقتها هي ما ينقدح في ذهن المفسر الصوفي من صلة بين المعنى الظاهر للفظة القرآنيـة الـواردة فـي الـسياق القرآني، وبين المعنى الذي أدركه الصوفي أثناء تلاوته للقرآن(14)، ويمكن أن يتضح ما قلناه آنفاً في التصوير التالي:



ومما يجدر ذكره أن إشارة الآية أو اللفظة في الآية تختلف باختلاف درجة أو حال المفسر الصوفي، بمعنى أنها تتكشف لكل صوفي بحسب ما منحه الله تعالى له من الاستعداد الروحي، وما وهبه من الأسرار، من ثم يأتي المدلول تبعاً لتلك المواهب والأسرار.

وهذا يؤكد بطبيعة الحال نسبية الإشارة، أي أن الإشارة عند مفسري الصوفية ليست واحدة بل متعددة بتعدد المفسرين، ولذا نجد الصوفية يختلفون في تفسيراتهم للآية الواحدة شأنهم شأن أهل التفسير الظاهر، بيد أن اختلاف مفسري الصوفية في مستنبطاتهم لا يؤدي إلى حكم الغلط والخطأ، لأن الاختلاف الذي بينهم -كما يقول الطوسي- اختلاف "فضائل ومكارم ومحاسن ومقامات ودرجات"[15].

ويرى الطوسي المذكور أن هناك فرقاً بين الفهم والإشارة، حيث يضرب لكل من المصطلحين أمثلة توضح مفهومهما دون أن يشرح ذلك بوضع حدود فاصلة تمنع الخلط بينهما. ولكن بتأمل الأمثلة التي ساقها الطوسي لإجلاء مقصود المصطلحين، يمكن أن نصل إلى نقطة افتراقهما. فمن الأمثلة التي أوردها لتحديد معنى (الفهم) تفسير الواسطي لقوله تعالى: ﴿الذين أمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾[16]. حيث يقول في ذلك: "قلب المؤمن قلب يطمئن بذكر الله تعالى وقلب العارف لا يطمئن بسواه"[17]. نلاحظ أن الواسطي لم يفهم من القلب معنى آخر غير القلب المقرر في الآية أي ما يدل عليه المعنى الظاهر، بيد أنه فرق بين حال قلب المؤمن الذي وصفه بأنه يطمئن بذكر الله، وبين حال قلب العارف الذي لا يطمئن بغير الله. فهنا لم يشر اللفظ عند الواسطي إلى معنى يخالف المدلول الظاهر لكلمة (القلوب)، وإنما فهم منها مصطحباً سياقها الذي وردت فيه، أن قلوب المؤمنين ليست سواسية وإنما هي درجات، فقلب يطمئن بذكر الله، ولكنه في الوقت ذاته قد يطمئن بغيره لما فيه من غفلة وآفات، وقلب لا يطمئن إلاّ بذكر الله، وقد وصف ذو النون المصري حامله بقوله: "من ذكر الله تعالى ذكراً على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء، وحفظ الله تعالى عليه كل شيء وكان له عوضا عن كل شيء"[18] وذلك هو العارف الذي أراد الواسطي إيضاح حال قلبه.

أما ما يتعلق بالأمثلة التي ساقها الطوسي لشرح مصطلح الإشارة، فمنها تفسير أبي يزيد البسطامي لقوله تعالى: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾[19]، حيث يقول في ذلك: "أراد بذلك أن عادة الملوك إذا نزلوا قرية أن يستعبدوا أهلها، ويجعلوهم أذلة لهم، ولا يقدرون أن يعملوا شيئاً إلاّ بأمر الملك وكذلك المعرفة، إذا دخلت القلب لا تترك فيه شيئاً إلاّ أخرجته ولا يتحرك فيه شيء إلاّ أحرقته"[20]. لقد بدأ البسطامي تفسيره للآية بذكر المعنى الظاهر الذي هو

المشير، ثم أورد العلاقة التي بطريقها تم استنباطه للمشار إليه. هذه العلاقة هي علاقة المشابهة بـين الملوك وما يفعلونه من اضطهاد واستعباد لأهل القرى التي يدخلونها، وبين المعرفة التي إذا ما حلـت بقلب أحد أحرقت كل شيء فيه. وبذلك ندرك أن أركان الإشارة الثلاثة في هذا المثال قـد تـوافرت، وهي المشير والعلاقة والمشار إليه. هذا النوع من التفسير الذي يقوم على الإشارة يختلف عن التفسير السابق الذي لا يعدو كونه فهماً مبنياً على تجربة سابقة مكنت صاحبها من شرح المعنى بشكل واضح وجلي دون أن يخرج عن المدلول الظاهر لكلمة (القلوب) الواردة في الآية.

وبهذا نستطيع أن نقرر أن مصطلح الإشارة في التفسير الصوفي عبارة عن مشير وهـو المعنـى الظاهر للفظ، ومشار إليه وهو المعنى الباطن والعلاقة الرابطة بينهما، التي تعد في الوقت ذاته مبرراً يشرح العلة في الجمع بين المدلولين(21). وهذا في الحقيقة يدل على العبقرية في اختيار هذا المصطلح الذي يعني أيضاً الجمع بين الظاهر والباطن، وأنه لا باطن بدون ظاهر يدل عليه كما لا حقيقة بـدون أن تكون مؤيدة بالشريعة(22). ومما يحسن ذكره أيضاً أن الإشارة مجرد إيحاء بالمعنى، ومن شأن هذا الإيحاء أن يجعل المعنى الباطن أفقاً منفتحاً غير مغلق خلاف المعنى الظاهر المحكوم بقواعد اللغة مما يترتب على ذلك محدوديته ونهايته.

وهكذا نرى أن الإشارة قد اكتسبت عند الصوفية دلالة جديدة تحمل في طياتها مفهوما خاصـاً لا يدرك فحواه إلاّ من طهر سره عن الأكوان بما فيها كما عبر أحدهم.

الهوامش

1- انظر ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس.

2- سورة مريم، الآيات 25 ، 26 ، 27 ، 28 ، 29.

3- لقد استخدم مصطلح الإشارة عند غير المتصوفة أيضاً، وبخاصة عند الأصوليين التي تعني عندهم: دلالة اللفظ على المعنى، من غير سياق الكلام له، ويسمى أيضاً بفحوى الخطاب نحو (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) ففي قوله تعالى (له) : إشارة إلى أن النسب يثبت بالأب وهي من أقسام مفهوم الموافقة، انظر التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، ج2، ص487.

4- الكلاباذي، التصرف على مذهب أهل التصوف، ص87.

5- انظر حسن الشرقاوي، معجم ألفاظ الصوفية، ص7.

6- انظر القشيري، الرسالة، ص114، والشعراني، اليواقيت والجواهر، ج1، ص15-21.

7- انظر الألوسي، روح المعاني، ج1، ص17، والحاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص357.

8- انظر عبد الله الغماري، بدع التفاسير، ص150.

9- الطوسي، اللمع، ص107.

10- انظر كاتب البحث Die sufische koranauslegung ، ص56.

11- انظر على حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، ص25-26.

12- انظر سيد أحمد خليل، دراسات في القرآن الكريم، ص1.

13- أبوحامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ج1، ص343.

14- انظر كاتب هذا البحث Die sufische koranauslegung، ص73 وما بعدها.

15- الطوسي، اللمع، ص150.

16- سورة الرعد، آية 29.

17- الطوسي، اللمع، ص127.

18- القشيري، الرسالة، ص296.

19- سورة النمل، آية 35.

20- الطوسي، اللمع، ص128.

21- انظر شرح هذه العلاقات في Die sufische koranauslegung، ص73 وما بعدها.

المصادر والمراجع

1- القـــــــرآن الكريم.

2- الألوسي، أبو الفضل محمد: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تـــح محمــد الحسين العرب، بيروت 1994.

3- التهانوي، محمد: كشاف اصطلاحات الفنون، ط1، تح أحمد بسج، بيروت، 1998م.

4- الجوهري، أبو نصر إسماعيل: تاج اللغة وصحاح العربية، تح إميل يعقوب، بيروت، 1999.

5- حسب الله، علي: أصول التشريع الإسلامي، القاهرة، د.ت.

6- خليل، سيد أحمد: دراسات في القرآن، بيروت، 1969.

7- الزبيدي، محب الدين أبوالفيض محمد مرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ط1، القاهرة، 1306هـ.

8- الشرقاوي، حسن: معجم ألفاظ الصوفية، ط2، القاهرة، 1992م.

9- الطوسي، أبونصر السراج: اللمع، تح عبد الحليم محمود وآخرين، القاهرة، د.ت.

10- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، بيروت، د.ت.

11- الغماري، أبو الفضل عبد الله: بدع التفاسير، ط2، القاهرة، 1994.

12- ابن فارس، أبوالحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، ط1، بيروت، 1991م.

13- القشيري، أبوالقاسم عبد الكريم: الرسالة القشيرية في علم التصوف، بيروت، 1998م.

14- الكلاباذي، أبوبكر محمد بن إسحاق: التعرف لمذهب أهل التصوف، د.م، د.ت.

15- ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، ط3، بيروت، 1994م.

16- Akash , Hussein Ali: Die sufisehe Koranauslegung: semantik und Deutugs smechnismen der isari-Exegese , Berlin 2006.